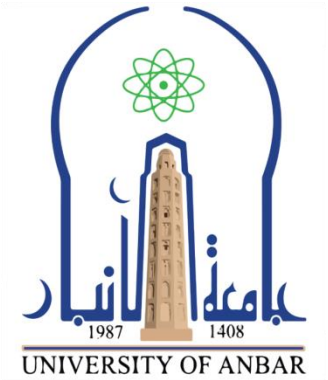

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التـاريـخ

المرحلة : الرابعــة

أستاذ المادة : م. محمد جهاد عبـد

اسم المادة باللغـة العربية : الفكر العربي الإسلامي

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Arab Islamic thought

اسم المحاضرة الثانية عشر باللغة العربية : علـم الكـــــــلام

اسم المحاضرة الثانية عشر باللغة الإنكليزية : Science talk

علــم الكـــــــــلام

عرف ابن خلدون علم الكلام، بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب أهل السنة(١).

أما سبب تسميته بعلم الكــلام فهناك آراء كثيرة حول هذه المسألة منها أنه ربما سمي (بعلم الكــلام) لأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف بين المسلمين هي مسألة كلام الله وخلق القرآن، فسمــي العلم كله بأهم مسألــة فـــي أو لأن مبناه كلام صرف في المناظرات والعقائد، وليس يرجع إلى عمل. أو لأن أنصاره تكلمـوا في مسائل كان السلف يسكت عنها. أو لأن في طرق استدلاله أصـــــول الدين أشبه بالمنطق في تبنيه مسالك الحجة في الفلسفة، فوضع للأول اسم مرادف بالمنطق في تبنيه مسالك الحدة في الفلسفة، فوضع للأول اسم مرادف للثاني، وسمي مقابلة لكلمة منطق.

فالمتكلم محام يدافع عن الإسلام، يذود عن حياضـــــه ويجادل بالتي هي أحسن ما استطاع إليه سبيلا. فهو يجعل من مسألة مختلف فيها من مسائل الاعتقاد والعقيدة موضـــوع برهنة جدلية، يورد البراهين النظرية لدعم القضية التي يعرضها. ولقد أخذ هذا الاصطلاح يتســـع تدريجياً، ويستعمل للدلالة على هؤلاء الذين يعملون من القضايا المأخوذة بسبب الدين، كمبادئ لا تقبل المناقشـــة، موضوع برهنة، فيتكملون في تلك المبادئ ويعالجونها ليتوصلوا في النهاية إلى تركيزها في صيغ يرون بأنها يجب أن تكون مقبولة حتى من الأدمغة المفكرة(٢).

---

١ - ابن خلدون - المقدمة من ٤٥٨

٢- عادل العوا ـ الكلام والفلسفة طبعة جامعة دمشق ١٩٦١ من ١١ ـ ١٦ احمد امين ، ضحى الإسلام . ج ٣ طبعة ٧ مصر ١٣٥٥

وعلى هذا الأساس يمكننا القول، بأن (الكلام) كان شائعا في جميع الفرق الدينية الإسلامية، التي نشأت منذ مطلع العصر الأموي، لكنه بقي جملة مذهبية غامضة، أخذت تتضـــح وتنضج ببطء تبعا ليقظـــة الذكاء الجمعي تدريجياً في أواخر العصر الأموي، ولعل السبب في هذا النمو البطـــيء لهذا العلم في هذه الفترة، يعود لانشغال الأمويين بالفتوح وتوسيع رقعة الدولة العربية، والدفاع عن حدودها، أو أن الأمويين انفسهم لم يكونوا في وضع سياسي يسمـــح لهم بالتسامـــح مع رجال هذا العلم، كونهم بأنهم اغتصبوا الحكم والسلطة(٣). وبالتالي فإن وجودهم على رأس هذا الحكـــم وجود غير شرعي، وفي هذه الحالة فإن علم الكلام سيخدم قوى المعارضة، التي أقلقت راحة الخلفـــاء الأمويين زمناً طويلاً.

ولكي تكـــون الصورة أوضح فلا بد من دراسة تطورات علم الكـــلام الذي تعد بداياته الأولى وأســاس وجوده في الفكر العربي الإسلامي والحضـــارة العربية الإسلاميـــة قد وضعت في العصر الأموي.

يعتبر أولئك الذين تكلموا بالقدر، منذ فترة مبكرة في العصر الأموي، هم أساس وجود انتشـــار هذا العلـم الذين يمكن أن تذكر منهم، محمد بن علي بن العباس المتوفى سنة **١٢٥**هـ الذي أرسلـه أبوه إلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وزيد بن علي بن الحسين حيث قال حين سأله بعضهم عمـا يذهب إليه: أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهـــم على الله، ومن المرجئة الذين أطمعـــوا الفساق في عفو الله، ومحمد بن سيرين المتوفى سنة ١١٠ هـ/٧٢٩ م، الذي روي عنه أنه وأصحابه مروا برجل مجلـــود فقال قائل: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به، فقال ابن سيرين : "لا تقولوا هكذا ولكن قولـــوا: الحمد لله الذي عافانا مما سولت له نفسه"(٤). ومنهم الحسن بن أبي الحسن البصـــري المتوفى سنة ١١٠هـ/٧٢٩ الذي أثر أقوال . ومجادلات متنوعة، تشير كلها إلى أنه كان من الذين اشتغلوا في ميدان الكلام، وإن كان الأمر لم يصل عنده إلى حد التعمق، كما تعني لفظة علم الكلام نفسه. فمن هـــذه الأقوال ما يدل على أنه كان يؤمن بأن الخير من الله والشر من البشر(٥) وله مع الحجاج بن يوسف الثقفي مراســـلات كلها بأنه كان يقول بمسألة القدر، وقد روي عنه، أنه مر بلص مصلوب فقال: طما حملك على هذا فقـــال: قضاء الله وقدره، فقال: كذبت أيقضي الله عليك أن تسرق وقضى

٣- محمد عبد الرحمن مرحبا . من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية طبعة بيوت ١٩٧٠ ص ٢٨٢ .
٤- عبد الجبار الهمذاني - الدية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل - تحقيق سامي الفشار وعصام الدين على طبعة ١٩٧٢ص ٣٢ - ٣٣

٥- الهمذاني . المصدر السابق من ٢٤ .

عليك أن تصلب (٦). وهذا يدل دلالة واضحة على عدم إيمانه بأن الأفعال الخيرة والشريرة، هي من الله قدرها على الإنسان، وهي مكتوبة عليه ومتحدث لا محالة، إنما يريد الله للإنسان الخير وليس الشر، فالشر هو من صنع الإنسان.

ويعد الحسن البصري في نظر البعض، أنه هو الذي اسس ما يسمى بالقدرية والتي تطورت فيما بعد إلى ما يسمى بالمعتزلة، وذلك في العصر العباسي فقد علم تلميذه واصل بن عطاء أن العبد حر، وأن له الاختيار المطلق في الأفعال من خير وشر وهو المبدأ نفسه الذي قال به المعتزلة فيما بعد(٧).

من كل ما تقدم يمكن القول أن لفظ (علم الكلام) إنما بدأ على ألسنة الناس في أواخر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي. وكان الكلام : بسبب المسائل الجدلية كالقدر ثم تبعها مسائل أخرى تتعلق بالقرآن وبصفات الله تعالى، وتظهر ماهية علم الكلام والقصد منه في تلك الفترة الزمنية، إذا عرفنا أنه جامع وثيق بين علم الكلام والفلسفة، يمثله الاتجاه العقلي واعتماد المنطق والحجة والبرهان سبيلاً لنوال القصد وبلوغ الهدف وتحقيق ما هو منشود. بيد أن الفرق بينهما في أن الكلام يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، بينما الفلسفة تعليل بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية، فالمتكلم محام عن الدين كما ذكرنا بينما الفيلسوف حث عقلي مدقق يرتب الأدلة والحجج وينظم الأقيسة والبراهين، ثم يطلق الحكم على ما يجده حقاً في نظره كقاض(٨).

تأثرت ولادة علم الكلام في هذا العصر بتيارات فكرية، أدت بدورها إلى ظهور هذا العلم ويمكن أن تحدد هذه التيارات بفرعين رئيسين، أولهما، الخارجي، ومثله النصارى كالنساطرة واليعاقبة الذين ركزوا جدلهم حول طبيعة المسيح وقولهم بالقدر. وكان منهم يوحنا الدمشقي، الذي ألف عدة كتب في اللاهوت والفلسفة. وخاصة كتابه (ينبوع المعرفة) ويحاول يوحنا أن يربط بين الله وبين كل الأعمال الخيرة التي تصيب الإنسان، وإن الأمور الاختيارية هي ضمن تصرف البشر، ومنها الأعمال الشريرة، التي تكون مخالفة لله، ولا دخل له بها مع علمه المسبق أما التيار الثاني فيتمثل بالمسلمين أنفسهم، حيث اضطر المسلمون القدماء إلى بحصولها(٩). مجادلة ومناقشة المسلمين الجدد، الذين اعتنقوا الإسلام بعد أن كانوا يدينون بديانات أخرى

٦- الهمذاني - المصدر السابق من ٢٥

٧- حنا فاخوري وخلي الجر ، تاريخ الفلسفة العربية طبعة بيروت ص ١١٥

٨- عادل العوا - المرجع السابق من ١٤ - ١٥

٩- زهدي جار الله . المعتزلة طبعة أولى القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٣ و ٢٥ و ٣٧

كاليهودية والنصرانية والمانوية والزرادشتية والصابئة وما إلى ذلك، فبعد أن استقر هؤلاء وهدأت نفوسهم في الإسلام، أخذوا يفكرون في تعاليم دياناتهم السابقة، ويثيـــرون مسائل من مسائلها ويلبسونها لبـــاس الإسلام، وهذا ما يعلل وجود كثير من الأقوال في كتب الفرق الدينية الإسلامية بعيد كل البعد عن الإسلام ومن هنا نشأ واجب اساسي اضطلع فيه مفكرو الإسلام هو واجـــب المناظرة والنقد، هذا بالإضافة إلى الخصومات السياسية ذاتها، والتي كانت تسطيع بلون المناظرة الدينية، وبخاصة أن بني أمية كانوا يعلمون أن دولتهم لا يرضى عنها كثيـر من المؤمنين، وحتى يواجهوا هذه المعارضة السياسية، كانوا يلجـــؤون إلى القرآن والسنة لاستنباط السند الشرعي لدعم حكمهم إذا كان ذلك ممكناً، وهذا ما فعلوه(١٠) وقـد أدى هذا الواقع إلى نشوء فريقين متضادين في اواخر العصر الأموي وأخـــذ كل واحد منهما يدافع عن أفكاره ومعتقداته ويحاول أن تسود دون غيرها

القدريـة:

وهي حركة عقلية داخلية افتضاها منطق الأشياء والحوادث، وبخاصـــة في زمن بني أمية، الذين اعتبروا غاصبين للسلطة كما أسلفنا لذا قام القدريـــــون على إنكار دعـــــواهم، معتمدين على أدلة من الكتـــاب والسنة(١١) ويعتمد مبدأ القدرية على حرية الإنسان في إرادته وقدرته على فالإنســان في رأيهم مخير لا مسير مجبر، وأنه قادر على فعل الخير والشر، مسؤول عما يفعل يوم الحساب، يثاب على الخير ويعاقب على الشر وذلك بمقتضـــى العدالة الإلهية. وهم يتأولون الصفات مثل (اليد) و(العين) التي وصف بها الله في القرآن الكريم، وينفـون الصفات المعنوية كالعلم والقدرة، فيذهبون إلى أن صفات الله وذاته أمر واحد أي أن الله تعالى عالم بذاته لا بعلم خارج عن ذاته، وقادر بذاته لا بقدرة خارجـة عن ذاته(١٢). وقد أيدوا هذه الأقوال بآيات من القرآن الكريم والحديث النبـــوي، حتى تكون لدعواهم هذه قبولاً منطقياً عند الناس. ولسنا هنا بصدد تفنيد هذه الحجج أو التعليـــــق عليها في هذا المكان، إنما الذي نريده، هو أن نضيف أن ولادة مثل هذه الحركة في العصـــر الأموي، كان نذير خير وعافية من حيث أنها كانت مدخلاً للغوص في حقائق الكون والتعرف عليها من خـــلال البحث عن أسبابها وماهيـــة وجودها، الأمر الذي ساعد العرب المسلمين فيما بعد على وضع فلسفة عظيمة كان لها أثرها الخير على حياة الإنسانية حتى يومنا هذا.

---

١٠ - عادل العوا المرجع السابق ص ٢٠ - ٢١

١١- محمد عبد الرحمن مرحبا المرجع السابق ص ٢٨٥ حدا فاخـــــــــــــــــوري وخل الجر المرجـــــــــــــع السابق ص ٨٥

١٢- عادل العوا . المرجع السابق ص ٢٣